جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

مظاهر من المفارقة في القرآن الكريم
قصة موسى عليه السلام أنموذجا

الدكتور
عادل حسني يوسف
جامعة الملك سعود

العدد الخامس عشر
للعام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس الغرض من هذا البحث ، الاشتغال بذكر أنواع المفارقة ، وتمييز بعضها عن بعض، أو بيان تطورها وضبط تعريفاتها ، فقد نهض بذلك من كفانا المؤونة[1]، إنما غرضا النظر في الجانب التطبيقي منها ، لنرى كيف تتحقق المفارقة ، وتتجلى في قصة من قصص القرآن.

والعناية بالجانب التطبيقي– على كل حال – يعود فيؤثر في تطوير التعريفات، وترميم ما فيها من نقص وحذف ،وما تشتمل عليها من مفاهيم غير صائبة. فالتعريفات والمفاهيم إنما توزن بالنصوص،وبذلك يستقيم أمرها، وتعتدل مسيرتها.

لكن شيئاً آخر ، قد يحرف هذه المسيرة قليلاً عن استوائها واستقامتها ،كالعناية بالجانب النظري أكثر من الجانب التطبيقي ، أو كالاهتمام بنوع من المفارقة دون آخر، أو الانصراف إلى أقسام دون أخرى.

ولقد حظيت اللفظة المفردة ، والجملة الواحدة ، وما يقرب من هذه الدائرة الضيقة ، بعناية واضحة ، ممن يهتمون بالمفارقة .

---

(١) المفارقة والأدب : خالد سليمان ، دار الشروق ، ط١، عمّان ، ١٩٩٩ . ص ١٤–١٥ . وينظر أيضا: بناء المفارقة، دراسة نظرية تطبيقية ، أدب ابن زيدون نموذجاً : أحمد عادل عبدالمولى، مكتبة الآداب ، ط١، القاهرة ،٢٠٠٩ . ص: ١٣٩ وما بعد.

وفي حقل الدراسات القرآنية ، خصص الدكتور محمد العبد كتاباً مستقلاً ، يدرس فيه المفارقة في القرآن الكريم. وهي دراسة قيمة، لكنها لم تتجاوز كثيراً العناية (بالمفارقة اللفظية) . وهذه مجالها الكلمة وما حولها ، أو الجملة الواحدة وما يلوذ بها.

أما مفارقة الموقف ، في (الحدث والسياق)، حيث يتسع المجال ويطول الكلام ، فإنها لم تنل العناية الكافية .

وأما (المفارقة الممتدة)، حيث يتسع المجال أكثر فأكثر ، ليشمل مشهدًا متكاملاً، وقصة متراحبة[١]، فإن محمد العبد لم يعرض لها في كتابه ، ولا رأينا غيره قد ألم بذلك ، أو حاول معالجته.

ومن هنا عقدت النية ، على النهوض بهذا البحث ، راجيًا أن يكون لبنة تضاف إلى لبنات تقدمت، وإضاءة لجانب تطبيقي ، لم يحظ بالعناية ، وسبيلاً إضافية ، على طريق الكشف عن المعاني والمضامين ، بالنظر من زاوية ، ربما لم ينظر منها إلى آيات القرآن الكريم .

---

(١) ينظر: بناء المفارقة : شعر المتنبي نموذجاً : رضا كامل ، مكتبة الآداب ، ط١ ، القاهرة، ٢٠١٠.

التمهيد

ظاهر أن المفارقة مبنية على التضاد[١]، ومؤسسة على أن ما يجري لا يتوقع القارئ جريانه ، وأن ما يحدث كان ينبغي أن يحدث ما يناقضه ويعاكسه، لأن"المفارقة أن يُسرق السارق أو يغرق مدرب السباحة"[٢]، تفسير ذلك "أن هذا الأمر غير محتمل الحدوث، أي الإشارة إلى الفرق ، بين ما ينتظر حدوثه ، وبين ما يحدث فعلاً ، وكلما ازداد الفرق كبرت المفارقة"[٣].

والمفارقة ليست زينة شكلية للكلام، ولا هي تحلية في ظاهر القول ، بل " إننا نستطيع القول إنه لا يمكن أن توجد حياة بشرية أصيلة بدون مفارقة"[٤].

إذن ، إن وجود المفارقة في الأدب ، مبني على وجودها في الحياة، وارتباطها به، يعتمد على مدى ارتباطها بحياة الناس. وكما يقول كيركيكارد . "قد يدعي المرء أن ليس من حياة بشرية أصيلة ممكنة من دون مفارقة"[٥].

---

(١) ينظر المفارقة والأدب ص١٧. وينظر بناء المفارقة شعر المتنبي نموذجاً، ص ١٠٦.

(٢) موسوعة المصطلح النقدي ، المفارقة وصفاتها ، د. سي. ميوبك ، تر: عبدالواحد لؤلؤة ، دار المأمون ، بغداد . ص ٦٤

(٣) المصدر السابق، ص ٦٤.

(٤) المفارقة والأدب، ص ٣٥

(٥) ويقول أناتول فرانس: إن عالمًا بلا مفارقة يشبه غابة بلا طيور. وينقل توماس مان عن غوته قوله: إن المفارقة هي ذرة الملح التي تجعل الطعام مقبول المذاق" المصدر السابق ص ٣٤.

صور من المفارقة في قصة موسى عليه السلام:

إن اختيار صور من قصة موسى ، صلوات الله عليه ، إقـرار بأن قصته في القرآن ، ليست كلها مبنية على المفارقة، لكنها فـي الوقت نفسه – وكما يتبين بالمتابعة والتأمل– أكثر قصة يتوافر فيها هذا الفن.

وموضع التميز في هذه القصة ، أن المفارقة فيها ، ليست تلك التي تقوم على التناقض بين موسى وفرعون فحسب، بل إن كثيـراً من مظاهر المفارقة فيها ، تقوم بين موسى وشخصيات أخرى. وأكثر من هذا ، إن المفارقة كثيراً ما تكون بين موسى والمؤمنين .

وفي القصة تميز من جهة أخرى ، يتصل بالمفارقـة اتصـالاً وثيقاً، وهي أن مظاهر المفارقة فيها وافرة فيها منذ اللحظة الأولى ، أو قل من لحظة ولادة موسى عليه السلام .

الصورة الأولى من صور المفارقة

ونختارها من سورة القصص. وقصة موسى فيها طويلة جداً ، لكننا نقف منها عند مشهد ولادته ، وملابسات رضاعته.

يقول تعالى : "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فـإذا خفـت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادوه إليك وجـاعلوه من المرسلين . فالتقطه ءال فرعون ليكون لهـم عـدواً وحزنـا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امـرأت فرعـون قُرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولـداً ولا هـم يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لـولا أن

ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقرعينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكنّ أكثرهم لا يعلمون" [القصص ٦- ١٣]

هذا مقطع متكامل من السورة، وفيه مفارقات عديدة، لا تنتهي الأولى حتى تبدأ الأخرى، وقبل أن تنقضي إحداها تشتبك معها التالية.

وما أن تبدأ القصة ، حتى يجد القارئ كيف تتسع الهوة ، بين ما ينتظر حدوثه وما يحدث فعلاً ، بين ما يرقب حصوله ، وما يحصل في الواقع مما يخالفه .

المفارقة الأولى :

ما ينتظره كل قارئ ويألف حدوثه ، أن الأم تحفظ ولدها وتفديه بروحها ، وتبعده عن كل مظهر من مظاهر الخطر، وتحاول سد كل باب من أبوابه . لكن أم موسى هنا، تفارق- من حيث الظاهر - هذا المعهود ، وتخرج عليه خروجاً صارخاً ، حين ترمي ولدها في البحر.

لكن قد يقال إن ما فعلته أم موسى كان وحيًا من ربها، جاءها به ملك يكلمها[1]، لذلك فقد فعلت ما فعلته مطمئنة، خلية البال من

---

(١) ينظر: البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي : تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض ، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ٢٠١٠. ١٠٠/٧.

القلق ، مستريحة لما جاءها في الوحي من الوعد بـــالحفظ لولـــدها. وعندها يكون ما فعلته هو الذي ينتظر حدوثه، وإذن ليست لدينا في هذا الموضع (مفارقة) [١].

---

(١) لكن على هذا المذهب في التأويل مآخذ ، منها : أن الوحي – في روايات عديدة – لم يكن ملكاً على هيئة رجل ، كلمها كلاماً بينـــاً مبلغاً عن ربه ، بل كان الوحي إلهامًا داخليا ، ألقي فـــي قلبهـــا ، وميلاً وضع في نفسها ، " قال قتادة : أي قذفنا في قلبها ، ولـــيس بوحي إرسال " التفسير البسيط :علي بن أحمد الواحدي : تح : عبد العزيز بن محمد اليحيى ، عمادة البحث العلمي – جامعـــة الإمـــام محمد بن سعود الإســـلامية ، الريـــاض ، ١٤٣٠ ، ١٧– ٣٣٣ . وقيل بل كان مناماً ، روي ذلك عن ابن عباس وقتادة [انظر البحر المحيط ٩٩/٧]. وليس في هيئة الإلهام ولا المنام من الطمأنينة مـــا في تبليغ الملك .

ومن المآخذ أن الوحي لو كان ظاهرًا في هيئة الملـــك، وأنهـــا فعلت ما فعلته مطمئنة ، لما داخلها الخوف والهلع، ولما استبد بهـــا الجزع "ولا تخافي ولا تجزعي"، فلو كان أمرًا طبيعيًا ينتظر حدوثه لما خافت ولا جزعت، والخوف والجزع كانا حاضرين في قلبهـــا، وإلا فكيف ينهاها ربها عن شيء لم يحضرها . " قال محمـــد بـــن إسحاق ، وعبدالرحمن بن زيد : (فارغاً) من الوحي الذي أوحى الله إليها ، والعهد الذي عهده إليها أن يرده عليها ، وذلك لمـــا رأت موسى يرفعه موج ، ويخفضه آخر جزعت ...ثم لما أتاها الخبـــر بأن موسى وقع في يد آل فرعون ، قالت: قد وقع في يد عدوه الذي فررت به منه ، فأنساها عظيم البلاء ما كان من عهد الله إليهـــا . وهذا أيضاً قول مرضي " .التفسير البسيط ١٧ – ٣٤٠ .

ومما تذكره التفاسير أيضاً ، أن أم موسى لما "ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها : يا أم موسى، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري، ثم ذهبت فتوليـــت قتلـــه " الكشـــاف: جـــار الله الزمخشري : تح : عبدالرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ ، ٨٧٤/٢. والشيطان يحضـــر فـــي هـــذه

المفارقة الثانية:

وفيها أنّ كل ما فعلته أم موسى ، كانت ترجو منه أن يبقي ولدها بعيداً عن فرعون، لكن ما فعلته في الواقع هو الذي أوصل ولدها إلى داخل بيت فرعون.

ثم إنها أرادت إبقاء ولدها بعيدًا عن فرعون ، يقيناً منها أن فرعون سيقتله، لكن الذي جرى ، بيّن أن فرعون هو الذي حفظه ورعاه. و بهذا يكون التضاد بين الطرفين كبيراً جداً ، ومن هنا تعلو درجة التوتر في المفارقة إلى حد بعيد .

المفارقة الثالثة:

وفيها ، أن فرعون كان يسعى أن يبعد موسى عن مملكته كل الإبعاد، بأية وسيلة، وبكل سبيل ،بتلك المجزرة الكبيرة ، بقتل كل

اللحظة ، لأنها غير طبيعية ، وفيها يكون المرء ضعيفًا ، أما الحال العادية، فلا ضعف فيها ، لذلك ليس للشيطان مدخل إليها ، أما وقد حضر الشيطان ، ففيه دليل على أن ما يجري غير طبيعي ، وأنه غير ما ينتظره المتلقي لمكان المفارقة فيه.

ثم إنه لو كان الوحي إليها من خلال ملك يبلغها ، لأذهب ذلك عن قلبها كل حزن، ولأورث فيه برد اليقين الذي ينتج الاطمئنان ، ويطرد عن نفسها الحزن كله ، أما ترى النبي صلى الله وسلم لما كان في غار ثور، والمشركون على باب الغار، ومع ذلك كان ثابت الجنان مطمئن البال، لم يداخله خوف ولا اقترب منه حزن ، بل كان يهدئ أبا بكر، قائلاً " لا تحزن إن الله معنا" [التوبة ٤٠]. هذا موقف من يأتيه الملك بوحي ربه . أما موقف أم موسى فموقف من يقذف الإلهام في قلبها، ويوضع فيه ميل إلى معنى من المعاني.

والمأخذ الأخير ، إن من يزعم أن ما جرى من أم موسى كان أمراً طبيعيًا ، ينزع من القصة موضع العجب ومن يفعل ذلك ، فإنما ينزع منها موضع الإعجاز.

الأطفال من بني إسرائيل . لعل القتل يصيب موسى من بينهم، فيَبعُد عن فرعون بعداً لا رجعة معه ، ولا اقتراب له فيه . لكن انتهى الأمر إلى أن يكون موسى أقرب الناس إلى فرعون.

وكان يحاول بالمهلكة التي نصبها للطفل ، وقاية نفسه وصون مملكته ، فكان المآل ، أنه حفظ وصان الطفل الذي كان هلاكه وفناء ملكه على يديه . والتوتر في هذه المفارقة أيضاً عال جداً ، وذلك لمدى البعد بين الغايتين ، وهول التناقض بين الطرفين .

المفارقة الرابعة:

وفيها يتحول فرعون الحذر، الذي يعاقب بالشبهة ويقتل على الظن، فرعون الذي بلغ من حذره وحيطته ، أنه كان يرسل عيونه وجواسيسه ، ليتحسسوا رائحة المواليد الجدد من بني إسرائيل ، فيعدون الأيام على الحوامل من نسائهم، ويأخذون الذكور فيقتلونهم، يتحول هذا الحذر هنا إلى رجل ، تقتل فيه الغفلة كل حواسه، وتسد عليه منافذ الاهتداء إلى عدوه. يقول البقاعي في قراءته لقوله تعالى (فرددناه إلى أمه) من هذه القصة : " أي مع هذا الظاهر في الكشف لسره الموجب للريبة في أمره ، ومع ما تقدم من القرائن التي تقطع بها بأنه من بني إسرائيل ، منها إلقاؤه في البحر على تلك الصفة ، ومنها أن المدلول عليها لإرضاعه من بني إسرائيل ، ومنها أنه قبل ثديها دون غيرها من القبط وغيرهم"[١]. فالوليد الذي وعد

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين البقاعي ، بعناية عبدالرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٩٩٥. ٥/ ٤٦٩ .

به، هو بين يديه ، ومن يبحث عنه في كل مكان بعيد ، هو آمن ومستلق بين ذراعيه .

ويزيد من هول المفارقة أن أخت موسى جاءت إلى بيت فرعون ، وفي تصرفاتها وكلامها عن الطفل ، والعناية بشأنه، فيه كل الدلائل البينة ، على أن هذا الطفل من بني إسرائيل . وما يحصل هنا – بعد كل هذه الدلائل البينات – من فرعون لا ينتظره المراقب ، ولا يتصور المتلقي حصوله .

فقد عمي عن كل هذا ، وتحول الحذر إلى مغفل عجيب، ليس لديه في الدليل الواضح ، أثر لأي دليل، ولا له في البرهان الساطع ، بقية برهان.

المفارقة الخامسة:

لاشك أن أم موسى ، كانت تخشى أشد خشية ، أن يقع ولدها في يد فرعون، فلما أيقنت أنه وصل إلى بيته، كان أخشى ما تخشاه ، أن يعرف فرعون ، أن الطفل فرد من بني إسرائيل . وهذا يقتضي منها، ألا تقوم بأي عمل يدل على أصل الطفل. و قد عملت أخت موسى بهذا المقتضى ، في بداية مسيرة الصندوق الذي وضع فيه أخوها ، إذ (بصرت به عن جنب) أي :" عن بعد .... وقيل عن تجنب منها وتباعد"[1]، وتأمل كم في عبارة : (تجنب وتباعد) من الإحساس بموجب الحذر، والأخذ بالحيطة. وقد راقبته بعد أن ألقي في البحر لتنظر إلى أين يصير.

---

(١) التفسير البسيط : ١٧ / ٣٤٦ .

لكن أخت موسى لم تملك بعد ذلك نفسها، إذ كل ما قامت بـــه ، كان حرياً أن يكشف أمر أخيها ، فيؤدي ذلـــك إلـــى قتلـــه. فمجـــرد اقترابها من بيت فرعون ، قد يؤدي إلى انكشاف أمر الطفل . وهـــي لم تكتف بالاقتراب ، بل اقتحمت على آل فرعون البيت، وليس هـــذا فحسب، بل اهتمت بشأن الطفل، وتحدثت في أمره ، وأظهرت غايـــة الرفق بحاله ، وقالت إنها تعرف من يكفله ويرضعه ، وكان معروفـــاً أن الرضاعة صنعة لنساء بني إسرائيل(١).

كان المتوقع من أخت موسى ، أن تبتعد عن بيت فرعون كـــل البعد، لكنها خالفت ذلك وفعلت ما يضاده، فاقتربت من بيت فرعـــون بل دخلت وسطه . وهي إذ دخلت كان المتوقع أن تكون حـــذرة ، ولا تتكلم بشأن الطفل ، لكنها خالفت هذا المتوقع ، وفعلت مـــا يعاكســـه ويخالفه، فتكلمت في أخص خصائصه .

إذن وقع الذي ما كان ينبغي أن يقع، وحصل عكس الذي يتوقع القارئ حصوله، فكل ما حصل ، يؤدي إلى كشف حقيقته أمر الطفـــل ليقتل، لكن مع ظهور أمره كل هذا الظهور ، وعلى خلاف ما يتصور ،بقي أمره خافيًا ، فسلمت حياته ونجا الطفل . ويبدو أن هـــذا هـــو ترجمة ما جاء في سورة أخرى، في شأن موسى، حيث يقـــول لـــه ربه: "ولتصنع على عيني" [طه ٣٩]، فمن كان (يُصنع على عـــين

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : عبد الحق ابن عطية ، الأندلسي : تح : عبدالسلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٩٩٣، ٤/ ٢٧٩.

الله) ، فإن عين الله لا تنام ، بل تنام عنه كل عين أخرى ، فلا تستطيع أذيته.

وظيفة المفارقة:

فهذه قصة طفل في غاية العجز، وما أحاط به ، كان أقله حرياً بأن يوصله إلى هلاكه ، ويؤدي إلى مقتله. ومع كل ذلك بقي في حفظ وأمن . هذه المفارقة الكبيرة- ولا شك - تظهر لقوم موسى ، مواضع العجب بل الإعجاز فيه ، منذ طفولته ، و يهيئ العقول فيهم إلى الإيمان به ، يوم يقوم داعيًا إلى رسالته.

علاقة المفارقة باسم سورة القصص

السورة هي سورة (القصص) ، وهي جمع قصة ، لكن هذه السورة وردت فيها قصة موسى فحسب. صحيح أنه قد ذكر فيها شعيب وابنتاه ، لكنهم ذكروا، لما تعلق ذكرهم بمسيرة موسى، وكذلك ينظر إلى فرعون، فهو يذكر بذكره ، لأنه جزء من قصته. وكذلك كان حال هامان ، أما ترى فرعون قد قال له " فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين" [القصص ٣٨]. فالقصة إذن قصة واحدة . فلماذا جاء اسم السورة بصيغة الجمع .

ومراعاة لهذا الاعتبار، فإن سورة (الشعراء)، كان يمكن أن تسمى سورة (القصص)، لأنه ذكر فيها قصص أكثر الأنبياء ، وفصلت أخبار أممهم، وكذلك سورة (النمل) ، وهما السورتان السابقتان لسورة (القصص). فكيف تتوجه تسمية هذه السورة ،

بسورة القصص، وهي كما قلنا ، قد بنيت على قصة موسى عليه السلام وحده.

ولعل سر التسمية ، يكمن في هذه المفارقات العجيبة ، التي تمر بالقارئ ، المحب لموسى، المشفق عليه وعلى أمه ، الذي يرقب الأهوال التي تمر بهما ، فيكاد كل هول يقطع أنفاسه ، وكل مفارقة تقطع نياط قلبه ، خوفاً من أن يكتشف أمر الطفل فيقتل. وهل هناك خوف أشد من أن يلقى طفل في البحر؟ بل هل هناك خوف أشد من أن تصبح في يد فرعون ، وأنت عدو فرعون . ومن هنا ، فإن كل مفارقة تصلح أن تكون قصة برأسها ، وعندها تصلح أن تكون السورة سورة (القصص).

الصورة الثانية من المفارقة

وردت قصة موسى أيضاً في سورة الكهف، وفي قصته من هذه السورة مفارقات كثيرة تتوالى . وتبدأ المفارقات ، من لحظة لقاء موسى مع (الخضر) ، الرجل الصالح ، الذي أمره ربه أن يلتقي به ، ليتعلم منه.

يقول تعالى: "فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيءٍ حتى أُحدثَ لك منه ذكراً. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئتَ شيئا إمراً . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً . قال لا

تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسراً . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تُصاحبني قد بلغتَ من لدني عذراً . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردتُ أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً" [الكهف ٦٥-٨٢]

المفارقة الأولى:

يسبق إلى ذهن كل مؤمن أن الرسل هم أعلم الناس. لكن أول ما يلقانا من القصة هنا، أن موسى جاء ليتعلم. والنبي هو معلم الناس ، و"يجب أن يكون أعلم أهل زمانه، المرجوع إليه في أبواب الدين"[١] ، لكن هنا يقول موسى للرجل الصالح : (هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا).

---

(١) الكشاف:١ / ٦٦٧ .

المفارقة الثانية:

كما يسبق إلى الذهن ، أن الأنبياء أكثر الناس تحلياً بالصبر، ولاسيما أولو العزم منهم، وموسى عليه السلام أحدهم ، وما يخالف هذا المعهود والمنتظر ، أن الرجل الصالح العالم ،يقول لموسى : (إنك لن تستطيع معي صبرا) ، وفي هذا – كما يقول الزمخشري – "نفي استطاعة الصبر على وجه التأكيد "[١].

المفارقة الثالثة:

وهذه مفارقة عامة وكبيرة ، تتعلق بما فعله (الخضر) ، ذلك الرجل الصالح ، الذي آتاه الله العلم ، ووهبه الرحمة (وآتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) . هذا الرجل يُقدِم على أفعال لا يتوقعها المتلقي منه، فيقتل طفلاً ، والمنتظر منه فعل كل ما يوافق الرقة والرحمة . لكنه يفعل أفعالاً تضاد – من حيث الظاهر– صفتيه في (الرحمة والعلم) . أين الرحمة وأين العلم ظاهرياً ، ممن يخرق السفينة في البحر ، ويعرّض من فيها – وفيهم هو نفسه– لخطر الهلاك بالغرق؟ وهذه عجائب كبيرة ،لا ينتظر القارئ أن تجري على يد هذا الرجل الصالح ، بل ينتظر منه ما يناقضها .

يؤيد جهة التعجيب فيها ، ما روي عن النبي ﷺ – لما قرأ قوله تعالى على لسان موسى : (قد بلغت من لدني عذراً) – أنه قال: "استحيا نبي الله موسى عندها ، ولو صبر لرأى ألفاً من العجائب"[٢] .

---

(١) المصدر السابق : ٦٦٧/١ .
(٢) التفسير البسيط : ١٤ / ٩٣ .

المفارقة الرابعة:

التكرار في نسيان موسى وعده بالصبر ، وعدم التدخل والاعتراض : وهذا مالا يتوقعه المتلقي البتة، ومدى المفارقة هنا كبير جداً . فإذا كنا نجد لنسيانه في المرة الأولى عذراً أو تفسيراً ما، فإن ذلك قد يتعذر فيما بعد ، ولاسيما و(الخضر) كأنه يتحداه بقوله (وكيف تصبر ....) .

وظيفة المفارقة:

نلمح هنا ثلاث وظائف:

كأن إحدى وظائف المفارقة،إظهار عزيمة موسى وهي تتراجع، و إبراز ذاكرته وهي تنسى ما تعد به.وكذلك بيان أن علمه محدود . فكل ما جرى أمامه لم يعرف له تفسيراً، ولم يكن لديه علم به.

يقوي هذا التوجيه ، ما يروى "أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا ، أمره الله أن يُذكّر قومه النعمة ، فقام فيهم خطيباً ، فذكر نعمة الله ، وقال : إن الله اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علمنا هذا، فأي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله"(١).

وكأن السياق أراد إرشاده بهذا الاختبار، ما الذي ينبغي أن يقوله في مثل هذا الموقف ، حيث ينبغي أن يعيد كل شيء إلى ربه وحده . يؤيد هذا ويؤكده ، إظهار ضمير الربوبية وإعادته ، في قوله تعالى، لما أمره بالذهاب إلى (الخضر) : "آتيناه رحمة من عندنا

---

(١) البحر المحيط: ١٣٦/٦.

وعلمناه من لدنا علماً "، فهذه آية قصيرة، أعيد فيها ضمير ذي الجلالة عدة مرات. وقد استوجبه موقف موسى، لما أجاب قومه، بتلك الطريقة التي عتب الله عليه فيها.

١- ونلمح لهذه المفارقات من هذه الصورة، وظيفة أخرى ، وهي أن تقابل وظيفة (الصورة الأولى) ، من المفارقات التي في سورة القصص.بيان ذلك ، أنها هناك كانت كأنها تبني في النفوس أسساً أولية وخفية، تهيئها للإيمان بموسى عليه السلام وبدعوته، إذا حان الوقت .

أما في هذه السورة، فقد آمن قومه به، ومن هنا فإنه من المهم، إظهار الجانب البشري فيه أحياناً ، لئلا تتعلق به النفوس تعلقاً شديداً ، فيتراءى لها، أن تنسب إليه شيئا من القدسية أو صفات الربوبية.

وخطر الانزلاق إلى هذا ممكن، والشرائع منه على حذر، لذلك فهي تُذكّر في مناسبات عديدة ببشرية الأنبياء، بخطاب مباشر أحياناً، أو غير مباشر أحياناً أخرى، كما مر قبل قليل، مما حصل لموسى عليه السلام، من مفارقة الصبر له ، وظهور جانب الضعف البشري عليه.

وعدم ملاحظة بشرية الرسول مزلقة، قد ينتهي ببعضهم إلى تعظيمه، وربما يمنحه بعضهم بعض صفات الإله، لذلك يذّكر القرآن أحياناً، ببشرية الأنبياء بطريقة غير مباشرة، كالذي حصل مع موسى عليه السلام، فيما تقدم من المفارقات .

وإذا ذكر القرآن ذلك بالطريقة المباشرة، فإنه يذكر في النبي، أخص صفات الإنسان ، تلك التي تثبته في البشرية بأدل صفاتها، ليكون محالاً إخراجه منها، يقول تعالى: "ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام" [المائدة ٧٥] ، و " من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم"(١)، وفي قوله تعالى : "كانا يأكلان الطعام" يقول البيضاوي: " يفتقران إليه افتقار الحيوانات، بيّن أولاً أقصى ما لهما من الكمال، ودل على أنه لا يوجب ألوهية، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية"(٢). تأمل قول البيضاوي : (ودل على أنه لا يوجب ألوهية)، فإنه من المقاصد المهمة للقرآن .

لقد نهضت المفارقة ، في شأن موسى بذلك من أبلغ طريق، إذ أظهرت فيه من النقص في الصبر ، ما يثبت بغير شك رسوخه في البشرية، وأنه لا يمكن أن يوصف بأية صفة خارجة عن حدود البشرية العادية ، إلا في قضية الوحي ومقضياتها.

٣- أما الفائدة الثالثة، فتتعلق بالقارئ .فلقد أكسبت المفارقات القصة تشويقاً بيّناً ، فجذبت القارئ إليها ،وشدته إلى متابعتها

---

(١) حاشية الشهاب: شهاب الدين الدين أحمد بن محمد الخفاجي، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٧. ٣- ٥٢٥ .

(٢) تفسير البيضاوي : ضمن حاشية الشهاب : وينظر أيضا: تفسير أبي السعود، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤. ٦٨/٢ .

بغاية الشغف، فرجل صالح يخرق سفينة فيها أناس، ثم يقتل طفلاً ، ثم نبي يخفى عليه من ذلك ما يخفى . وهكذا يظل القارئ يتنقل بشوق مع هذه المفارقات، لعله يهتدي إلى حل يريحه ، وتفسير يبرد حرارة نفسه ، مما يراه من الأحداث العجيبة .

وموقف القارئ في المفارقة ، وطريقة مشاركته فيها ، وهيئة وعيه بها ، يحدد نوعية المفارقة ومقدار امتاعها له . إذ " تعتمد نوعية المفارقة كثيراً على ما إذا كان الجمهور على علم بالنتيجة ، أو بالوضع الحقيقي ، أو أنه لا يعلم ذلك حتى يعلمه الضحية"[١] .

والقارئ هنا، في قصة موسى مع الخضر ، تخفى عليه النتيجة، ويغيب عنه السر ،فينفعل كما ينفعل موسى عليه السلام، ويعترض على الأحداث كاعتراضه، ويجد في نفسه حماسة كحماسته ، و توقاً كتوقه إلى معرفة السر في هذه المفارقات.

ويذكرنا موقف القارئ هنا ، بموقف قارئ آخر مختلف ، وهو يرصد مفارقة مختلفة ، وذلك في قصة الإخوة (أصحاب الجنة) في سورة القلم ، يقول تعالى : "إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذا أقسموا ليصرمُنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حردٍ قادرين . فلما رأوها قالوا إنّا

---

(١) المفارقة وصفاتها: ص ٦٥.

لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألـم أقـل لكـم لـولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضـهم علـى بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنّا كنا طاغين . عسى ربُنا أن يبدلنا خيراً منها إنًا إلى ربنا راغبون" [القلم ١٧ – ٣٢] .

كانت هذه الجنة لرجل خيّر ، يصحب معه المساكين إليها ، يوم حصادها، فيعطيهم منها . وكانت هذه عادته ، قد عهدوها منه ، فلما مات الرجل، وخلفه عليها أبناؤه ، خالفوا سنة أبيهم فـي مسـاعدة المساكين . ولما حان يوم القطاف ، تآمر الإخوة في ليلتـه ، علـى حرمان المساكين ، وعزموا على الخروج باكرًا على غفلـة مـنهم ، فأرسل الله ناراً من الليل، فاحترقت الجنة كلها، (فأصبحت كالصريم).

احترقت ،والإخوة الأبناء نائمون ، لا يعرفون ذلك، أما القـارئ فقد عرف الحال . ثم انطلق أبطال القصة في الصباح (يتخـافتون)، حتى لا يشعر بهم المساكين ، فيلحقوا بهم ، ثم خرجوا من بيـوتهم يتهامسون. واتجهوا إلى جنتهم، بقلوب مفعمة بالآمال لما سـيجنونه منها، ونفوس عامرة بالأماني لما سينالونه في هذا اليوم الموعـود من الوفرة ، فلم يعد للمساكين نصيب ، فالغلة كلها لهم وحدهم.

لكن الأمور كانت تجري على غير ما يأملون ، وتسير إلى غير ما يشتهون ، فلما وصلوا إلى بستانهم لم يجدوا شيئاً ، فظنوا أنهـم أخطؤوا الطريق، وذلك لأن الحريق غيّر كل المعالم، ثم لما حققـوا ، عرفوا حقيقة ما حصل، وأدركوا المصيبة التي حلت بهم.

وجهة اختلاف موقف القارئ هنا، عما جرى لـــه فـــي قصـــة موسى، هو أن القارئ هنا- كما قلنا- عارف للسر منذ البداية ، في حين كان السر يخفى عليه كما يخفى على موسى، في سورة الكهف.

ولكن إذا كان القارئ في قصة أصحاب الجنة ، قد عرف الســـر منذ البداية ، فهذا لا يعني أنه عرف كل شيء ، ولا يعني أن الأمور كلها كُشفت والأسرار كلها عُرفت . بل بقيت أشياء عديدة تخفى عليه ، منها أنه لم يكن يعرف ما الذي سيفعله هـــؤلاء الإخـــوة ، كيـــف سيتصرفون للوصول إلى ما عزموا عليه. وفي هـــذا مـــن حماســـة المتابعة ما يملأ القصة بالتشويق، ويفعـــم نفـــس القـــارئ بالمتعـــة الغامرة. لاسيما أن هؤلاء غافلون عما جرى لجنتهم .

والحماسة هنا مختلفة عما جرى في قصة موسى، فالقارئ هنا يراقب حركة الإخوة المغفلين، ويلحظ خطواتهم ويتابعها، يرى أنهـــم (أقسموا ليصرمنّها مصبحين)، فيضحك ويقول : أي شيء تصرمون وقد احترق بستانكم كله. ثم يسمعهم (يتنادون) عند الفجر متهامسين ، لكيلا يشعر بهم الفقراء، فيضحك ، بل يعلو ضحكه على تهامســـهم واستتارهم . يراهم وقد (انطلقوا وهم يتخافتون) ، مســـتترين مـــن المساكين ، فيضحك أكثر وأكثر على غفلتهم . يسمع قـــول بعضـــهم لبعض : (ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) ، ويتأمل صرامتهم في هذا القرار ، فيتحول ضحكه إلى قهقهة عالية ، توقظ هؤلاء العاجزين من غفلتهم ، وتفتح عيونهم على مصير جنتهم الحقيقـــي ، بـــل علـــى مصيرهم هم المأساوي.

الصورة الثالثة من المفارقة:

قوله تعالى : "ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسِفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم . ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون" [الأعراف ١٥٠-١٥٤].

المفارقتان الأولى والثانية :

وقد جمعنا الاثنتين معاً ، لتداخلهما في الآيات، ولتداخل كلام العلماء فيهما.

ونبدأ متسائلين ما الألواح وماذا فيها ، ومن هارون[١]؟ أما الألواح : فـ(فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) ، وقيل عنها كذلك : "وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء" [الأعراف١٤٥].

---

(١) لا نقول هذا لنعرّف به بل لنبرز أثر المفارقة .

وأما هارون، فهو أخو موسى، وهو وزيره "واجعل لي وزيـــرًا من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري وأشركه في أمـــري" طـــه [٢٩- ٣٠ - ٣١]. وهارون كذلك " كان أكبر منه "[١].

ففي الألواح إذن كلام الله، وفيها هدى ورحمة، وفيها التفصيل لكل شيء ، فهي كتاب ربه كاملاً ، وهو يحمله لأول مـــرة، يحملـــه كله، ومن هنا يتوقع القارئ ألا تلقى هذه الألواح، لكن ما جاء فـــي القصة خالف ذلك التوقع، فحدثت المفارقة، وألقى موســـى الألـــواح "فتكسرت فرفعت إلا سدسها"[٢].

عرف موسى ،أنه ما كان ينبغي أن يفعل ذلك ، وأن مـــا فعلـــه غير لائق .ومن هنا رقّ الرسول ﷺ له ، ورحم حاله ، وقال : " يرحم الله أخي موسى ، ما المخبَر كالمعاين ، لقد أخبره الله بفتنة قومـــه ، فعرف أن ما أخبره ربه حق ، وإنه على ذلك لمتمسك بما في يديه ، فرجع إلى قومه ورآهم فألقى الألواح "[٣]. وكان إحســـاس موســـى بهذا وافراً ، لذلك قال : " رب اغفر لي " [الأعراف ١٥١]. وقد عبـــر المفسرون عن هذا وبيّنوا ، منهم ابن عطية ، حيث يقول : "استغفر موسى من فعله مع أخيه ومن عجلته في إلقاء الألواح"[٤] .ويقول أبو

---

(١) حاشية الشهاب: ٣٧٦/٤ .
(٢) التفسير العظيم : العز بن عبد السلام : تح : محمد الشيخ حســـين وأصحابه ، دار النور المبين ، ط١، عمان ، ٢٠١١. ٥٠٧/٢ .
(٣) التفسير البسيط: ٩ / ٣٦٩.
(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : عبد الحق ابن عطية ، الأندلسي : تح : عبدالسلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٩٩٣. ٤٥٨/٢

حيان الأندلسي : " قالوا واستغفاره لنفسه بسبب فعلتـــه مـــع أخيـــه وعجلته في إلقاء الألواح"[١].

ويقول أيضاً : "وبالجملة فكان في خلق موسى عليـــه الســـلام ضيق. وذلك مستقر في غير موضع.. وأخذه برأس أخيه ولحيته من الخلق المذكور "[٢].

وهذا ما يراه البقاعي أيضاً، وذلك حين يعلق على قول موسى من الآية (اغفر لي ولأخي) ،يقول : " ولما دعا بمحـــو التقصـــير اتبعه الإكرام . فقال (وأدخلنا في رحمتك)" [٣]. إذن دعا موسى ربـــه ،ليمحو عنه التقصير ، في إلقاء الألواح ، وأخذه برأس أخيه. ويقول البقاعي أيضًا: "ولما تبين له ما هو اللائق، بمنصب أخيه الشـــريف، دعا له ولنفسه"[٤]، أي لما (تبين لموسى)، ويفهم من قوله (اللائق) ، أن ما فعله موسى بالألواح وبأخيه ، لم يكن لائقا بها وبه.

المفارقة الثالثة:

نستخلص المفارقة الثالثة ، في ضوء الأولى والثانية، فغضـــبة موسى عليه السلام كانت كبيرة على أخيه هارون ، لظنه أنه قد قصر في رعاية قومه، ولم يبذل جهدًا كافيًا ، في منع فتنة بعضهم بالعجل وعبادتهم له. و في الحق كان هارون ، قد بذل ما استطاع، لكن مع

---

(١) البحر المحيط: ٤/ ٣٩٥.
(٢) المصدر السابق: ٤٥٧/٢
(٣) نظم الدرر: ١١٥/٣.
(٤) المصدر السابق: ١١٥/٣.

ذلك ناله ما ناله من موسى ، حيث أخذ " بذؤابة أخيه ، وشعره بيده اليمنى ، ولحيته بيده اليسرى"[١].

بإزاء هذه العقوبة التي نالت هارون عليه السلام – على غير ذنب كان منه – يتوقع القارئ أن ينال الذين عبدوا العجل – وعلى رأسهم السامري – عقاب أشد وأنكى بكثير.

صحيح أنه قد قيل فيهم : "إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة" [الآية ١٥٢]، وصحيح أن غضب الله عقاب عظيم ، إلا أننا – مع ذلك – نلمح في السياق مظاهر أخرى (لغوية) ، كأنها تتوجه إلى التخفيف من العقوبة ، ولا تريد الصعود بها. ليس لأن الذنب صغير، بل كأنه يراد من هذا التوجه ،فتح باب العودة إلى الدين ، والرجوع عن الخطأ .

من هذه المظاهر اللغوية ، (السين) من قوله : (سينالهم)، تأمل معنى الاستقبال هنا، فهم قد عبدوا العجل ، والجرم الكبير قد حصل وانتهى، أما العقاب فإنه (سينالهم) . فهذه فسحة أعطيت ، وفرصة منحت ، للتفكير من أجل العودة.

ويؤيد هذا الملحظ ، الآية التي تليها، تأمل قوله تعالى : "والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم" [الآية ١٥٣]. هذه الآية ، حفية بإشارات التخفيف من لهجة العقاب، حافلة بها، منها:

---

(١) التفسير البسيط : ٩ / ٣٧٠.

١- تأمل قوله (عملوا السيئات) ، فعبادة العجل – وهي أعظم ذنب – أصبحت (سيئة) ، تأنيساً لقلوبهم ، ليعيدوا النظر فيما أقدموا عليه ، لعل ذلك يميلهم إلى العودة.

٢- ثم انظر إلى فتح باب التوبة في قوله : (ثم تابوا) ، وتأمل كيف تتجاوب (ثم) هنا مع (السين) في الآية السابقة، و(ثم) : تعني التراخي في الزمن والمهلة فيه، وكأن الخطاب يقول : العودة مقبولة وإن جاءت بعد مدة من التفكر ، والتوبة ترتجى حتى لمن كان عبد العجل . فباب التوبة مفتوح ، لأنه باب لا يغلق ، ودرب لا يوصد ، وإن تأنى السالكون فيه أحياناً وتباطؤوا .

٣- ولا ننسى التوكيد بـ (إن) و (اللام) في ختام الآية، فمعنى المغفرة والمرحمة مؤكد وموثق . أرأيت كم يحدو السياق والخطاب من أذنب إلى العودة.

٤- ثم الختام بـ (غفور رحيم) ، صفتان، كل واحدة تفتح القلوب المغلقة، والنفوس المستعصية . والصفتان ختام لآية ، بدأت بالحديث عمن أذنب أعظم الذنب ، وهو ختام قد يصلح لآية تقدم فيها ذنب لمن آمن ، أو قل ، قد يفي بحق عبد صالح وقع في مخالفة. أما والذنب هنا عظيم ، وختام الآية (لغفور رحيم)، فهذا يعني أن السياق ، سياق بسط لأجواء المغفرة والمسامحة ،فلا تعنيف في الخطاب، ولا نشر للغة التهديد والوعيد.

وكأن في هذا – وبصوت خفي جداً- عتباً آخر على موسى عليه السلام ، فيما فعله بأخيه هارون، يهمس قائلاً : إذا كان ربك قد رقق القول لمن عبد العجل ، ولطف بهم ، أفما كان من الأليق بهارون خطاب ألطف .

واستخراج أجواء المسامحة هنا، وتجاوز الآثام وإن عظمت ، ليس ظناً ، إنما هو شيء يفيده روح اللغة بأدواتها ، كما أن هذه الأجواء ، قد صدقتها آيات من سور أخرى، فالذين عبدوا العجل ، قد سامحهم ربهم حقاً، وغفر لهم . جاء في سورة البقرة "وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون " [البقرة ٥١ – ٥٢].

وظيفة المفارقة

نلمح في هذه المفارقة فائدتين:

١- الأولى توكيد ما جاء في (الصورة الثانية) ، أي لا يزال السياق يود أن يبرز في موسى عليه السلام ، أوضح دلائل البشرية، وفي أبسط مظاهرها، فموسى عليه السلام من جهة ، بشر مثل كل البشر العاديين ، يجري عليه ما يجري عليهم ، ويحصل منه ما يحصل من أبسطهم . وفي هذا ، إبعاد له ، عن أن يسلخ من هذا العالم الأرضي، أو يخرج من هذه الكينونة البشرية، حتى لا يصعد به أحدهم إلى كينونة أخرى ، ملائكية، أو فوق ملائكية. فتجلي البشرية الطبيعية فيه، وفي لحظات ضعفها، حتما يبعد ذلك.

٢- إن التفاوت الواضح بين الذنب الكبير المرتكب ، ولهجة العقاب الهادئة، ونشر أجواء المسامحة إلى جانبها ، فيه درس لنا بأن فتح باب الرجوع هو الأول والأولى، وأن باب الاسترسال مع النفس الغاضبة ، ومد اليد بالعقوبة ، ربما يكون فيه الندم.

الصورة الرابعة من المفارقة

هذه الصورة هي عرض مختلف للصورة الثالثة، ووجه آخر لها، يقول تعالى : "وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك رب لترضى . قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلهم السامري . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا . ألّا تتّبعن أفعصيت أمري . قال يبنؤُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي . قال فما خطبك يا سامري . قال بصُرتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي . قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك

الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليم نسفاً" [طه ٨٣ – ٩٧].

المفارقة الأولى:

(ما أعجلك عن قومك يا موسى...) هذا خطاب من الله لموسى عليه السلام، قد وصفه فيه بالعجلة، و لقد ثبت الوصف ولزم ، بالسؤال عن تبريره .

وكأن موسى لم يكن يتوقع هذا السؤال ، وخاصة أن يَرِد عليه " على سبيل الإنكار"[١]، ومن هناجاءت إجابته غير مطابقة ، لأن وصفه بالعجلة "أذهله عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام"، لأن قوله تعالى " (وما أعجلك) سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك "[٢].

وسبب هذا الأثر البالغ في موسى، علمه أن ما فرط منه في عجلته إلى لقاء ربه ، وإنكار الله له ، بكلمة الاستفهام، قد ينتج عنه خطب كبير، يعود خطره على قومه ، وخاف أن يكون – بتعجله– سبب ذلك الخطر إذا حدث.

المفارقة الثانية:

(قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري)

---

(١) الكشاف : ١/٧١٤.
(٢) المصدر السابق: ١/٧١٤

يبدو أن ترتيب الكلام ، وهيئة تركيبه نحوياً ، يدل على أن ما خاف منه موسى عليه السلام ، قد حصل ، أي أن إسراعه في مفارقة قومه ، قبل الموعد المضروب مع ربه ، كان سبباً لوقوع قومه في الاختبار ، فابتلاهم الله بالعجل الذي صاغه السامري ، فوقع من وقع وضل ، وثبت من ثبت على الإيمان.

وهذه مفارقة كبيرة ، إذ المعهود أن يكون نبي القوم ، حامياً لهم من الابتلاءات والاختبارات ، وكان موسى حريصاً على ذلك ، كعادة كل نبي، لكن فرط منه هنا، فكان تعجله سبباً لاختبار قومه . (وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك) .

فمجيء (فإنا قد فتنا) ، في عقب (وما أعجلك) ، فيه دليل على ارتباط هذا بذاك ، ارتباط السبب بالنتيجة ، لذلك ، جعل بعضهم الفاء ، في (فإنا) للتعليل ، قال الشهاب الخفاجي:"وقيل إنها تعليل لما سبق، أي لا ينبغي البعد عن قومك ، فإنهم لحداثة عهدهم بمكان ، يحيق فيه مكر الشيطان"[١]. وكان البقاعي ، قبل الشهاب الخفاجي ، قد ذكر ذلك صراحة : " (قال) الرب سبحانه : (فإنا) ، أي قد تسبب عن عجلتك عنهم ، أنا (قد فتنا) ، أي خالطنا بعظمتنا مخالطة مميلة محيلة (قومك) بتعجلك"[٢].

---

(١) حاشية الشهاب : ٦/٣٨٠.
(٢) نظم الدرر: ٥/٣٦.

وكان الزمخشري قد بيّن جانب الخطر ، في سبق موسى لموعد ربه فأحسن بيانه، حيث أوضح أن موسى تقدم قومه إلى لقاء ربه ، قبل الموعد المضروب "شوقا إلى كلام ربه ، وتنجز ما وعد به، بناء على اجتهاده ، وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى . وزلّ عنه أنه عز وجلّ ما وقّت أفعاله ، إلا نظراً إلى دواعي الحكمة ، وعلما بالمصالح ، بكل وقت"(١) .

المفارقة الثالثة

(قال ما منعك يا هارون إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري) كان المتوقع من موسى ، أن يبادر أولاً إلى السامري ، الذي أضلّ قومه، لا سيما أن ربه قد قال، قبل حديثه مع أخيه هارون : (فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) و (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري) ، هذا كلام الله لموسى ، وكلام قومه له ، يقال له : إن (السامري) هو الذي أضل القوم ، وهو الذي فتنهم ، فيدعه ويذهب إلى أخيه هارون.

وفي هذا – كما يبدو لنا– حكمة بالغة ، من موسى عليه السلام، نرجئها إلى حين ، لنذكرها في (وظيفة المفارقة).

المفارقة الرابعة

(قال فما خطبك يا سامري . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي)

---

(١) الكشاف: ٧١٣/١.

ينتظر القارئ من موسى أن يعنّف السامري أيما تعنيف، وربما يتوقع أن يفعل موسى به ،أكثر بكثير مما فعله بهارون، أو ربما يتوقع أن ينزل به ما أنزله بالقبطي، "فوكزه موسى فقضى عليه". [القصص ١٥].

ويزيد من هذا التوقع أن السامري – لما سأله موسى ، عما فعله بقومه ، من الفتنة العظيمة – لم ينكر فعلته ، ولا اعتل بعلة تخفف من وقعها ، بل واجه موسى بلهجة ، فيها كل ما يغضب الحليم ، ويستدعي العنف من الرحيم ، وأجابه بكلام فيه كل أمارات التحدي (بصرت بما لم يبصروا به) . ينسب نفسه إلى البصيرة ، وفي ضمن هذا نسبة موسى ومن معه إلى الضلال عن البصيرة الحقة . ثم (وكذلك سولت لي نفسي) ، أي أمضيت ما رأيت ، ولست أبالي بأحد .

وبعد كل هذا ، لم يأخذ موسى برأس السامري ، ولا بلحيته ولا وكزه ولا قضى عليه ، ولا أي شيء مما ينتمي إلى هذا الباب ، بل قال له : (فاذهب ....) .

سعة صدر عجيبة ، وهدوء نفس ، وسكون أعضاء .كل ذلك لا ينتظره القارئ ، لما خبره من طبع موسى عليه السلام ، و "كان موسى صلوات الله عليه، رجلا حديداً، مجبولاً على الحدة والخشونة، والتصلب في كل شيء"[١].أحسب أن هذا التعميم من الزمخشري ، غير صائب ، إذ كان الأوفق له أن يستثني . وإلا فأين حدته

---

(١) الكشاف: ٧١٥/٢ ، وينظر أبو السعود : ٣٨/٦

وخشونته مع السامري؟ ألم يكن هو الذي فتن قومه؟ ولو كان الأمر كما قال الزمخشري ، لفتك موسى عليه السلام بالسامري ، بضربة واحدة، لكنه بقي ثابت الجنان ، موفور الحلم.

وفي هذا الحلم – والمفارقة فيه ذات توتر عال جداً – حكمة أخرى، وعبرة جديدة ، ودرس قيّم ، نذكره في وظيفة المفارقة.

والزمخشري ، وإن كان يرى أنّ عقوبة السامري عظيمة ، وأنه "لا شيء أطم منها وأوحش"(١) إلا أنه – وكما هو بيّن– لا يتحدث عن لحظة الحدث ، وما كان يحضر موسى من الغضب لله إذا خولف دينه، فالزمخشري يتحدث عن العقوبة المؤجلة عن لحظة الحوار بين موسى والسامري، ولا يتحدث عن العقوبة الآنية العاجلة، كالتي نال منها هارون ما ناله ، فما قاله موسى للسامري بقوله (فاذهب) ، هو عقوبة الله له، ومن هنا يقول أبو السعود في بيانه للعقوبة التي نالت السامري : "ذلك أنه تعالى رماه بداء عقام ، لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد ، كائناً من كان ، إلا حما من ساعته حمى شديدة ، فتحامى الناس وتحاموه"(٢).

أما العقوبة الآنية، كالتي حضرت نفس موسى عليه السلام ، لما واجه أخاه هارون ،فإن شيئاً من ذلك لم يحصل من موسى تجاه السامري.

---

(١) الكشاف : ٧١٦/١.
(٢) تفسير أبي السعود: ٣٩/٦.

فالمفارقة إذن ثابتة، بالرغم مما قاله الزمخشري، لأن أية مقارنة ، بين التصرفين أو الموقفين ، يكشف هذه المفارقة.

وظيفة المفارقة :

نجد في المفارقتين الأولى والثانية ، استمراراً لترسيخ صفة البشرية ، في شخص موسى عليه السلام ، وقد مضى مثل هذا في الصور المتقدمة.

١- أما المفارقة الثالثة، وفيها أن موسى قد علم بخبر ربه ، أن السامري هو من فتن قومه، لكنه ذهب إلى أخيه هارون ، وبادره بالسؤال والتحقيق في الأمر . وهذا ليس رداً لخبر ربه ، فهو قد صدق نبأ ربه في مسؤولية السامري عن الجرم . ولكن مسؤولية السامري ، لا تمنع أبداً ، أن يكون هناك تقصير من جانب المؤمنين ،ومن أعوان موسى ووزرائه .

وفي ذهابه إلى أخيه أولاً ، درس بالغ منه – عليه السلام – لنا، وفائدة عظيمة عملية. لأن من عادة كثير من المجتمعات – ونحن منها– أن تبحث عن مسببات مصائبها عند الآخرين، وتنسب مشاكلها إليهم ، وترمي أخطاءها عليهم. و هم في الوقت نفسه ،يذهلون عن دواخلهم ،فلا يتعهدونها بالتصحيح والتصويب. ومن هنا فإن مشاكلهم تستمر، ومصائبهم تكبر وتدوم ، مهما تغير العالم من حولهم.

أما موسى عليه السلام ، فإنه يرينا هنا منهجاً جديداً قويماً ، يقتضي منا البحث في أنفسنا أولاً . بل أكثر من هذا، إنه يعلمنا أن

نبدأ بالصالحين منا لنسائلهم ، بل نبدأبالأصلح فنتحقق من عمله ، ونكشف عن أحواله .فالمشكلة قد تكون فيه ، وحضور البلاء ربما كان بتقصير منه . وصلاح الصالح وتقواه ، لا يجعله بمنجاة مما تقدم . ومن هنا بدأ موسى عليه السلام البحث عن المشكلة عند أخيه.

وفي هذا درس آخر، لأنه إذا تم إصلاح الداخل، هانت وخفت كل المشاكل التي تأتي من الخارج. و ربما كان أخطر شيء على النفس، هي النفس ذاتها ، وأفتك شيء بالمجتمع ، هو أخطاء المتجمع نفسه.

وأعظم بلاء وأطمه ، أن نخطئ مكان التشخيص، فلا نتحقق من أنفسنا وذواتنا، ونتهم الآخرين بأنهم سبب مشكلاتنا، وأنهم لو تغيروا، أو غيروا طريقتهم في التعامل معنا، سلمت مجتمعاتنا ، وحُلّت مشاكلنا ، وانتهت مصائبنا.

يبين لنا موسى عليه السلام بهذه (المفارقة) ، أن هذا طريق خاطئ، وأن المنهج السليم ، هو البحث في الداخل ، والتحقق منه أولاً ، حتى وإن كنا على يقين ، بأن الخارج فيه كثير من أسباب مشاكلنا ومصائبنا .

٢- أما المفارقة الرابعة، وكان فيها ، أن موسى عليه السلام- على خلاف المتوقع- لم يعنّف السامري ، مع إصراره على موقفه واتهامه لموسى و من معه، وبلهجة فيها كل الاستفزاز.

نلمح في هذا التصرف الليّن مع المخالفين ، بداية لفتح باب العودة ، ودعوة لبدء التفكير في الموقف الذي اتُخذ . في حين أن العنف والقسوة في مثل هذه المواقف ، يحمل المخالف على التمادي في الخطأ والإصرار عليه .

وفي العنف أيضاً إرضاء لشهوة النفس الغاضبة، وإمضاء لرغبتها الخاصة، ومتى كانت شهوة النفس تجلب المصلحة؟

ولعل (اللين) ، الذي واجه به موسى (السامري) ، شيء طبعه الله في لسانه ، وأودعه في قلبه ، في مثل هذه المواقف . نلمح صدى ذلك ، في قوله تعالى ، مخاطباً موسى وهارون : "اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى" [طه ٤٣ – ٤٤]

إذن فالقول اللين، قد يفتح باب التذكر، ويثني المخالف ليعود، حتى ولو كان قلبه كقلب فرعون. فحق لموسى إذن، أن يتصرف بلين مع السامري، فيفارق الشدة ويخالف الحدة، ويقول له: (فاذهب).

و بعد فلا تستطيع أن تمنع نفسك ، من أن تنذكر بـ (فاذهب) من قول موسى عليه السلام ، قول محمد عليه الصلاة والسلام : (اذهبوا) . من قوله : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) [١].

وتتذكر بسعة الصدر ، وراحة النفس التي تنشرها عليك (اذهبوا) ، سعة الصدر وراحة النفس ، التي في (فاذهب) ، ثم

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير : تح : أحمد جاد ، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦. ٢ – ٣٠٥ .

تضيء لك من بعيد قولة موسى : (فاذهب) ، لتكشف نور الرحمة ، في عبارة محمد ﷺ : (فاذهبوا) .

وهكذا، فإنه ليست تتفق أفكار الأنبياء وأخلاقهم فحسب، بل تتفق كذلك عباراتهم. فموسى رسول الله ومحمد رسول الله، صلوات الله عليهما وسلامه .وهما يقتبسان من مشكاة واحدة ، وينهلان من معين واحد. وهما بابان واسعان من أبواب الرحمة ، يرفقون بالمخطئين ، حتى لو كانوا ممن عبدوا العجل، أو كانوا من مشركي قريش ، ممن آذوا الرسول و أخرجوه من دياره.

وكم عاد ممن عبدوا العجل؟ كثرٌ ولا شك، ورد ذلك في الآيات، مما مر من سورة البقرة، وكم دخل في الإسلام بعد قول الرسول (اذهبوا) ؟ دخلوا أفواجاً في دين الله .

أما اتباع شهوة الغضب وإنفاذها ، فهو الأسهل والأشهى لدى النفس . والصبر أمام هذه الشهوة ، وإيقاف جموح ثورتها هو الأصعب والأشد.

وهنا فحسب ، تظهر لنا صفة موسى الحقة ، ونفهم ما وصفه به الزمخشري وأبو السعود ، بأنه (كان رجلاً حديداً)، نفهم هذه الصفة على حقيقتها، وبتمام معناها، (فالرجل الحديد) ، هو أيضاً ذلك الذي يرد لهيب غضبه ، ويطفئ نارها. وموسى عليه السلام فعل ذلك بكل حدة وشدة. ولعل هذا يذكرنا كذلك ، بحديث رسول الله ﷺ "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[١].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني : تح : عبدالعزيز بن باز ومحمد فؤاد عبدالباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٤. ١٠- ٥٨٤ .

الخاتمة

١ - غدت (المفارقة) وسيلة أساسية ، لكشف المعاني المستكنة في النفوس ، وسبراً لأغوار المرء ، حيث أظهرت لنا دفائن أحاسيسه ، واتخذت أداة غوص ، تستجلي ما في أعماقه، فأطلعتنا على سجيته الخالصة من غير تحوير ولاتزويق ، وأرتنا مرآته الداخلية في صفائها الشفاف الأول دونما تزوير أو تنميق . بدا ذلك أكثر ما بدا مع موسى عليه السلام .

٢ - كما هيأت لنا (المفارقة) النظر إلى جهات من الآيات ، كان يصعب النظر إليها من دونها. وإذا توافرت زاوية نظر جديدة فإنه - على الأقل - تتهيأ لنا نافذة على معان جديدة.

٣ - ومع المفارقة الممتدة ، التي تتقابل بها الأشياء في صور متكاملة ومشاهد مركبة ، تحولت بعض المعاني في بعض الآيات ، إلى مرايا لمعان أخرى مقدرة وأحداث مصورة، كان يتوقعها القارئ. وبالتجاذب بين الطرفين ، تردد القارئ بين الحدثين ، وتنقّلت عينه بين المشهدين ، فتراءت لنا بذلك تلك المعاني والإيحاءات كلها .

٤ - ساقت لنا (المفارقة) كل ذلك، في قالب ظاهر من التشويق ، وقدمته لنا في ثوب من المتعة ، لايقادر قدره .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ـ المقدمة	
ـ التمهيد	
ـ صور من المفارقة في قصة موسى عليه السلام	
ـ الصورة الأولى من صور المفارقة	
ـ المفارقة الأولى	
ـ المفارقة الثانية	
ـ المفارقة الثالثة	
ـ المفارقة الرابعة	
ـ المفارقة الخامسة	
ـ وظيفة المفارقة	
ـ علاقة المفارقة باسم سورة القصص	
ـ الصورة الثانية من المفارقة	
ـ المفارقة الأولى	
ـ المفارقة الثانية	
ـ المفارقة الثالثة	
ـ المفارقة الرابعة	
ـ وظيفة المفارقة	
ـ الصورة الثالثة من المفارقة	
ـ المفارقتان الأولى والثانية	
ـ المفارقة الثالثة	

الموضوع	الصفحة
ـ وظيفة المفارقة	
ـ الصورة الرابعة من المفارقة	
ـ المفارقة الأولى	
ـ المفارقة الثانية	
ـ المفارقة الثالثة	
ـ المفارقة الرابعة	
ـ وظيفة المفارقة	
الخاتمة	

فهرس المصادر والمراجع

١- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي : تح: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ٢٠١٠.

٢- البداية والنهاية: ابن كثير : تح: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.

٣- بناء المفارقة، دراسة نظرية تطبيقية، أدب ابن زيدون نموذجاً: أحمد عادل عبدالمولى، مكتبة الآداب ، ط١، القاهرة ، ٢٠٠٩ .

٤- بناء المفارقة: شعر المتنبي نموذجاً: رضا كامل، مكتبة الآداب، ط١ ، القاهرة، ٢٠١٠.

٥- تفسير أبي السعود، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤.

٦- التفسير العظيم: العز بن عبد السلام: تح: محمد الشيخ حسين وأصحابه، دار النور المبين، ط١، عمان، ٢٠١١.

٧- التفسير البسيط : علي بن أحمد الواحدي : تح : عبد العزيز بن محمد اليحيى ، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٣٠ .

٨- حاشية الشهاب : شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٧.

٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني: تح: عبدالعزيز بن باز ومحمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤.

١٠- الكشاف: جار الله الزمخشري: تح: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

١١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق ابن عطية، الأندلسي: تح: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ، ١٩٩٣.

١٢- المفارقة والأدب : خالد سليمان دار الشروق، ط١، عمّان، ١٩٩٩.

١٣- موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة وصفاتها ، د. سي. ميوبك ، تر:عبدالواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد.

١٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي ، بعناية عبدالرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥.